

محمود عبد العال | Mahmoud Abdalel \*

"داخل الإخوان المسلمين: الدين والهوية والسياسة"  
"Inside the Muslim Brotherhood: Religion, Identity, and Politics"

عنوان الكتاب في لغته: Inside the Muslim Brotherhood: Religion, Identity and Politics

عنوان الكتاب: داخل "الإخوان المسلمين": الدين والهوية والسياسة

المؤلف: خليل العناني.

سنة النشر: 2016.

الناشر: Oxford University Press.

عدد الصفحات: 199 صفحة.

\* باحث مصري مختص بقضايا التحول الديمقراطي وسوسيولوجيا الأديان.

Egyptian researcher specialized in democratic transition and sociology of religion.

## مقدمة

الدراسات؛ إذ إنَّ الكاتب قدّم نسقاً منهجياً جديداً يعتمد على دراسة التفاعلات، والعمليات الداخلية التي تُسهم في بناء الهوية لأعضاء الجماعة. ويُعدُّ هذا النموذج التفسيري الذي عمل عليه العناني دليلاً للباحثين المنشغلين بظاهرة الحركات الإسلامية على اختلاف أنماطها؛ سواء السياسية أو الاجتماعية أو حتى الجهادية للالتفات إلى العوامل والبنى الداخلية التي تتحكّم في سلوك أفرادها، بدلاً من التركيز على السلوك الخارجي فقط.

يحاول الكاتب في كتابه المؤلّف من ثمانية فصول ومقدمة وخاتمة، دراسة الجماعة من الداخل من خلال تفكيك تفاعلات ثلاثية الدين، والسياسة، والهوية، وتأثير الدين والسياسة في مسألة بناء هوية الفرد المنخرط في نشاطات الجماعة. وعلى صعيد آخر، عالج الكتاب مسألة تأثير العمل الجماعي في تشكيل الهوية داخل الإخوان من خلال الإجابة عن تساؤل: كيف تستطيع حركة اجتماعية تغيير رؤية أعضائها وتصوراتهم للعالم؟ وذلك من خلال الإجابة عن عدد من التساؤلات الفرعية المتعلقة بمايلي: كيف يتحوّل الشخص العادي إلى شخص إخواني؟ وكيف يتجلى هذا الانتماء في نسق حياته اليومية؟

برزت أهمية طرح العملية المتعلقة ببناء الهوية لأعضاء جماعة الإخوان المسلمين لدى الكاتب نتيجة ملاحظاته المتعلقة بصمود الجماعة وأعضائها على مدار أكثر من ثمانين عاماً أمام حالات القمع الشديد على مرّ العصور المختلفة؛ وهو ما عزاه إلى أسباب تتعلق ببنية الجماعة نفسها، كونها لم تكن حركة سياسية فقط، ولكنّها حركة اجتماعية تمتلك نظرة كليّة للعالم في إطار الهوية الإسلامية. برزت هذه المقاربة لدى الكاتب من خلال تمحيصه في ظروف الإقصاء التي تتعرّض لها الجماعة في الحقب السياسية المختلفة، وهو ما أطلق عليه "سردية المحنة"؛ إذ حُلّت الجماعة في عهد الملك فاروق أواخر سنة 1948، وتجاوزت محاولات الاجتثاث في عهد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، لتعود مرّةً أخرى وبقوّة في عهد الرئيس أنور السادات، وكذلك تجاوزها محاولات التضييق عليها في عهد الرئيس الأسبق حسني مبارك خاصة أواخر سنة 2010، بل تصدّرها المشهد السياسي بعد ثورة 25 يناير 2011 وصولاً إلى محاولات الاستئصال الجارية منذ عزل الرئيس محمد مرسي في 3 تموز/ يوليو 2013.

## أولاً: معضلة المنهج ومسألة دراسة بناء الهوية الإخوانية

قد تُبرز دراسة الظواهر المعقدة في العلوم الاجتماعية والإنسانية عجز المناهج العلمية، وضعف تفسيراتها في عملية التفكيك. وعلى

أثار تأسيس جماعة الإخوان المسلمين على يد حسن البنا سنة 1928 عديد التحولات والتطورات على المستويين الحركي والفكري؛ إذ نمت حقول المعرفة التي تهتم بدراسة ظاهرة الحركات الإسلامية. أمّا على المستوى الحركي، فقد ضمن تأسيس جماعة الإخوان المسلمين في مصر بروز حراك سياسي كبير امتدّ أثره إلى المستويات العربية، بل الإسلامية. لذا يحاول خليل العناني، الباحث والأكاديمي المختصّ بالحركات الإسلامية، في كتابه **الإخوان المسلمون من الداخل: الدين والهوية والسياسة**، الإجابة عن تساؤل مركزي يتعلّق بعملية بناء الهوية في النسق اليومي داخل جماعة الإخوان المسلمين، من خلال تركيزه على الديناميات والتفاعلات الداخلية التي تتشكّل من خلالها. بصيغة أخرى، يسعى العناني إلى بحث: كيف يصبح شخص ما إخوانياً؟ وكيف يظهر هذا الانتماء على نشاطاته في النسق اليومي؟

”

يعتمد الكاتب في تفكيك عملية بناء الهوية لأعضاء جماعة الإخوان المسلمين على رؤيتهم لأنفسهم، من خلال التركيز على مراحل عملية إنتاج الهوية كالتنشئة، والتلقين، والتفاعلات الداخلية

“

يعتمد الكاتب في تفكيك عملية بناء الهوية لأعضاء جماعة الإخوان المسلمين على رؤية أعضاء الجماعة لأنفسهم، من خلال التركيز على مراحل عملية إنتاج الهوية كالتنشئة، والتلقين، والتفاعلات الداخلية التي يتم من خلالها إنتاج المعاني، والرموز، والقيم التي تُشكّل السلوك الفردي للأعضاء، وكذلك تصوّره للعالم والمجتمع المحيط.

يُعدّ الكتاب إضافة كبيرة إلى مكتبة العلوم السياسية، لا سيّما فيما يتعلق بحقل دراسة الحركات الإسلامية؛ إذ إنّه استطاع العمل على سدّ الفجوة المعرفية في الأدبيات التي تناول ظاهرة دراسة الحركات الإسلامية، وذلك من خلال تركيزه على تفكيك عملية إنتاج الفعل الجماعي للحركة من الداخل عبر دراسة مراحل بناء هذا الفعل من خلال ما أطلق عليه الهوية الإخوانية Ikhwanism، وكذلك دراسة أدوات الجماعة لإنتاج الفرد الإخواني Ikhwani كما سمّاه الكاتب.

يختلف العناني في تناوله الظاهرة الإسلامية عن بقية الباحثين، باعتباره غرّد بعيداً عن السلوك الخارجي للجماعة الذي ترنّك عليه أغلبية

شيئاً مجرداً Datum أو جوهرًا Essence، لكنها مُنتجٌ لمجموعة من المفروضات، والتفاعلات، والنقاشات التي تتم بين الفاعلين لبناء إطار إدراكي مشترك يمكنهم من التعامل مع بيئتهم المحيطة، وبذلك يتمثل مفهوم ميلوشي للهوية في القدرة على خلق الرموز والمعاني لجذب الأعضاء وضمّان وحدتهم، وتضامنهم.

## ثانيًا: تأثير الإرث الفكري للإمام حسن البنا في مسألة الهوية

يوضح الفصل الرابع مركزية الدور الذي يقوم به فكر مؤسس الجماعة الإمام حسن البنا في التأثير في الجماعة حتى الآن؛ فقد أبرز أن كتابات البنا ورسائله من أهم أدوات عملية التنشئة داخل قسم التربية بالجماعة. ورأى العناني أن الظروف السياسية والاجتماعية المحيطة بالبنا أثرت فيه، سواء من ناحية التنظير الفكري أو تصوّره للحركة؛ فمثلاً انهيار الخلافة العثمانية سنة 1924، وموَّ الاتجاه الفكري المؤمن بالنهضة والحداثة على أساس القومية المصرية لا الإسلامية، بيئةً خصبةً لتخمر فكرة تأسيس جماعة الإخوان المسلمين لإعادة الخلافة. وقد ازداد الأمر حدّةً بعد إصدار الشيخ الأزهرى علي عبد الرازق كتابه الإسلام وأصول الحكم سنة 1925، الذي نسف خلاله رواية أن تكون الخلافة من الخطط الدينية؛ إذ اعتبر أن الإسلام لم يُحدّد شكلاً معيّنًا للحكومة<sup>(2)</sup>. واعتبر البنا أن الأشد ملاءمة لاستعادة الخلافة هو التركيز على تغيير المجتمع، واتبع في ذلك نموذج التغيير من أسفل Bottom-Up القائم على إدماج التعليم والقيم الإسلامية في كل مناحي الحياة اليومية للفرد. ورأى أن تبدأ العملية من بناء الفرد المسلم، ثم الأسرة المسلمة، ثم المجتمع المسلم، وصولاً إلى الحكومة الإسلامية وأستاذية العالم.

من ناحيةٍ أخرى، حاول العناني من خلال تبنيّه منهج التداخل بين التخصصات، كسر قاعدة الفصل الجامد التي يتبعها كثير من المنشغلين بمجال العلوم الإنسانية والاجتماعية، لا سيّما عند تناولهم ظاهرة الحركات الإسلامية، بل استطاع الكاتب في هذا الفصل تقديم بناء نظري قائم على مجموعة التفسيرات والتحليلات المرتبطة بعمليات التنشئة والتلقين داخل جماعة الإخوان المسلمين، وأطلق عليه نموذج الجماعة The Jema'a Paradigm. يقوم هذا النموذج (الرسم التوضيحي 1) على خلق نمط معيّن من الهوية لدى الإخوان،

العكس من ذلك، قد يقدّم الباحث إسهامًا منهجيًا من خلال دراسته الظواهر المعقّدة كما في الحالة محلّ الدراسة إذا ما أبرز جدية طرحه، وتعامل مع المناهج العلمية المتاحة لتقديم النتائج والتفسيرات العميقة للظواهر من دون الاكتفاء بظواهر الإشكالية. إلحاقًا بذلك، أبرز العناني في الفصل الثالث من الكتاب ضرورة التداخل بين التخصصات Interdisciplinary Approach لدراسة مسألة إنتاج الهوية ومظهراتها على السلوك الجماعي لدى أفراد جماعة الإخوان المسلمين. فقدّم العناني، وهو باحث مختص في العلوم السياسية، مثلًا يُحتذى للباحثين والمختصين في حقول العلوم الاجتماعية والإنسانية المختلفة، وذلك من خلال تبنيّه منهج التداخل والتكامل بين تخصصات العلوم الاجتماعية المختلفة، من خلال تبنيّه ثلاث مقاربات رئيسية؛ أولها علم النفس الاجتماعي لفهم سلوك أفراد الجماعة وتحليله، خصوصًا ما يرتبط بفهم دوافعهم للانضمام إلى الجماعة والمشاركة في نشاطاتها، على الرغم من حالة القمع الشديدة التي تتعرض لها. واستفاد كذلك من علم اجتماع الأديان فيما يتعلق بدراسة دور الدين في تشكيل هوية الأفراد، ومدى انعكاس ذلك على سلوكهم الاجتماعي، وأشار هنا إلى أداتية الدين في استقطاب الأعضاء وتنشئتهم؛ إذ يُعدّ الدين أمرًا مهمًا فيما يتصل بعمليات التجنيد، والاستقطاب، والتلقين. أما المقاربة الثالثة التي اعتمد عليها الكاتب فتتعلق بنظرية الحركات الاجتماعية، لا سيّما الجانب الخاص بنظرية تعبئة الموارد المتاحة وتوظيفها Resources Mobilization Theory ، وكذلك نظرية السلوك الجماعي Collective Behavior Theory ، وانعكاسات ذلك على عملية التجنيد، والاستقطاب، والتلقين التي تجري لأعضاء حركة الإخوان المسلمين<sup>(1)</sup>. واستطاع الكاتب الربط بين هذه المقاربات الثلاث، من خلال نظرية البنيوية الاجتماعية Social Constructivism، لتفسير التفاعلات التي تحدث داخل النسق اليومي، وما تتضمنه من عملية إعادة تشكيل رؤية الفرد لذاته وللعالَم من حوله.

على صعيد أدوات التحليل، اعتمد على أدوات منهج التحليل النوعي، متمثلة في تحليل الخطاب والملاحظة المباشرة واستخدامه أسلوب المقابلات المنتظمة أو شبه المنتظمة، إضافة إلى تحليل الوثائق والبيانات الرسمية، والكتب التعليمية الخاصّة بعملية التربية داخل الجماعة.

يتبنى العناني في دراسته مسألة بناء الهوية داخل جماعة الإخوان المسلمين مفهوم الهوية عند ألبرت ميلوشي؛ فهو يرى أنها ليست

2 للمزيد حول حكم الخلافة، انظر: علي عبد الرازق، الإسلام وأصول الحكم: بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام، تقديم عمار علي حسن (القاهرة: دار الكتاب المصري واللبناني، 2012)، ص 23 - 32.

1 للمزيد عن نظرية الحركات الاجتماعية ومناهجها، انظر: تشارلز تلي، الحركات الاجتماعية 1768 - 2004، ترجمة وتقديم ربيع وهبة (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2005)، ص 13 - 17.

العام، وتقوم على نشر فكرة الإخوان المسلمين من خلال التركيز على الأصدقاء، والأقارب، والجيران، ورفاق العمل والدراسة؛ بمعنى أنها تقوم على العلاقات الشخصية للدوائر الصغيرة المحيطة بالعضو. والمرحلة الثالثة هي الدعوة الفردية، وترتكز على خمس خطوات، هي التالية:

- التلقين وتغيير سلوك الفرد تدريجيًا من خلال بناء علاقة خاصة بين العضو والعضو المحتمل.
- الانتقال من المستوى الشخصي في الإقناع إلى المستوى الديني؛ أي أن يتم التركيز على تذكير العضو المحتمل بواجباته الدينية مثل الصلاة، وحفظ القرآن.
- الإقناع بفكرة شمولية المنهج الإسلامي من خلال الكتب التي تدعم ذلك، وعلى وجه الخصوص كتاب شمولية الإسلام للشیخ يوسف القرضاوي.
- تعزيز الشعور بالواجب نحو المسلمين المستضعفين في شتى بقاع الأرض، ويتم تنمية هذا الشعور من خلال الدعوة للتبرع بالمال لمصلحة المسلمين.
- العمل الجماعي من خلال المشاركة في الفعاليات كالتظاهرات، والحملات الانتخابية التي تدعو لها الحركة. ويتم في هذه المرحلة دعوة العضو المحتمل للانضمام إلى الجماعة والانخراط في عضويتها.

يعتبر العناني أن توليد الفعل الجماعي لأعضاء الجماعة يتم من خلال دعم شبكة العلاقات الاجتماعية. ويستند الإخوان في ذلك إلى تبني إستراتيجيات عديدة مثل استقطاب الأقارب ورفاق العمل والجيران، وتبني الزواج بين الإخوة والأخوات في الجماعة لإنتاج أطفال منتمين إلى الجماعة بالوراثة، ما يسهم في سرعة بناء المجتمع المسلم كما أشار مسؤول التربية داخل الجماعة صبحي صالح؛ إذ اعتبر أن الزواج من الخارج يؤثر سلبياً في أهداف الجماعة وغاياتها. جدير بالذكر الإشارة هنا إلى إغفال العناني تشبيك هذه الرؤية بالنظرية الرائدة لابن خلدون حول العصبية والملك؛ إذ إن هناك تشابهاً بين فكر جماعة الإخوان المسلمين تجاه تقوية الروابط الاجتماعية من خلال مدّ أواصر النسب والدم، ونظرية العصبية التي ترتكز على الحلف أو الدم لتقوية الحكم أو زواله إذا ظهرت قبيلة أكثر ترابطاً وتماسكاً من تلك التي ضعفت عصبيتها<sup>(3)</sup>.

معتمداً على تضامنهم وبروزهم وحدة متماسكة. وعدّ هذا النموذج الذي يُستند إليه في عملية التربية داخل الجماعة من أهم الركائز التي وضعها مؤسس الجماعة حسن البنا، وتُعتبر مسألة التكامل والاتصال بين عناصره، وإدراك الأفراد لها، أحد أهم مقومات تفعيل الهوية داخل الجماعة بما في ذلك تحمّل القمع بأشكاله المختلفة.

يقوم تصوّر البنا لعملية بناء الهوية على دور الجماعة في ضمان انتقال الأعضاء من الذات إلى المجتمع ثم إلى الفعل الجماعي، وكيف يمكن أن تساعد الجماعة في سدّ الفجوة بين هذه المراحل المختلفة للوصول إلى هوية مميزة عن باقي الحركات. تنطوي هذه العملية على ما أطلق عليه البنا "الفكرة الإسلامية" التي ترتكز على ثلاث دعائم؛ الأولى شمولية الإسلام لكل مناحي الحياة سواء السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الثقافية، وتقوم الثانية على المرونة والتكيف مع الظروف المختلفة لضمان البقاء، بل مد شبكة الاتصال المجتمعي، أمّا الثالثة فتقوم على الإيمان بشمولية المنهج الإسلامي لكل شيء، وهو ما أطلق عليه "القابلية للتطبيق".

## ثالثاً: بناء الهوية الإخوانية

تمرّ عملية بناء الهوية الإخوانية وترسيخها، وفق طرح العناني، بمجموعة من العمليات والمراحل. وقد أفرد الكاتب الفصول 5، و6، و7، و8، و9 لدراساتها.

### 1. الاستقطاب والتجنيد

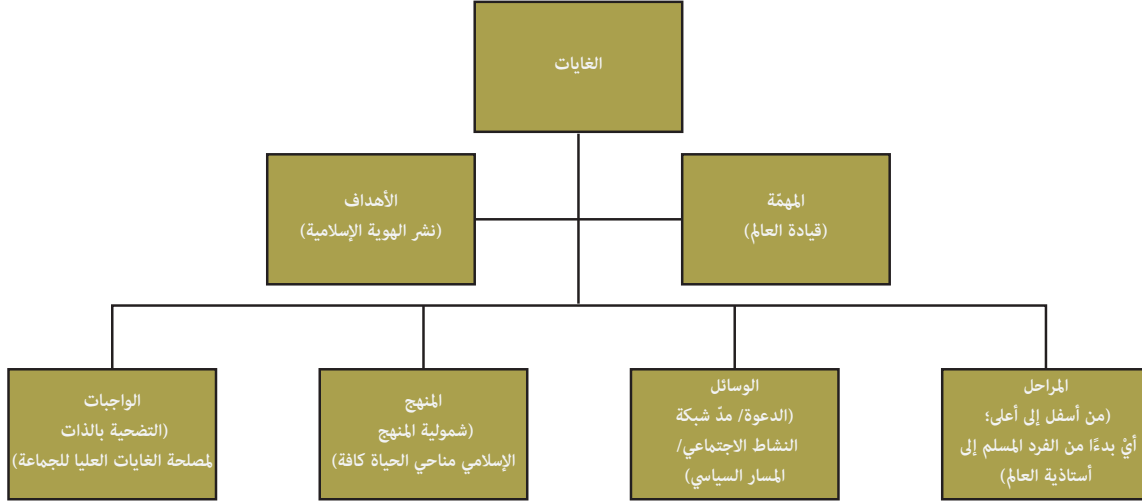
يرى العناني أن جماعة الإخوان حركة جماهيرية، لكن لديها نظام عضوية شديد التعقيد؛ بحيث لا يلتحق العضو بنفسه كبقية الحركات الاجتماعية، لكن يتمّ انتقاؤه عبر عملية معقّدة أطلق عليها "صيد الفريسة" Chasing the Prey. فقد تناول الفصل الخامس التكتيكات التي تتبعها الجماعة في مرحلة الاستقطاب، وتقوم هذه التكتيكات على الدّعاة، باعتبارهم أهمّ الأدوات الحيوية لتجنيد الأعضاء الجدد. كما تقوم عملية الانتقاء داخل الجماعة على أساس التحصيل والفحص للأعضاء المُحتَمَلين قبل دعوتهم للالتحاق؛ وذلك لاختبار قيم الولاء، والالتزام تجاه الحركة وقيادتها.

قسّم العناني عملية الاستقطاب إلى ثلاث مراحل؛ تتمثّل المرحلة الأولى في نشر الدعوة، وتقوم بالأساس على تحسين صورة الجماعة في الأوساط الجماهيرية لمواجهة الدعاية السلبية التي يبثها النظام ضدّ الجماعة، وتعتمد على الحملات الإعلامية، والخطب المسجّدية، والمحاضرات العامة. أمّا المرحلة الثانية، فهي الربط

3 عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة (الدار البيضاء: المركز الوطني للبحث العلمي والتقني، 2005)، ص 213.

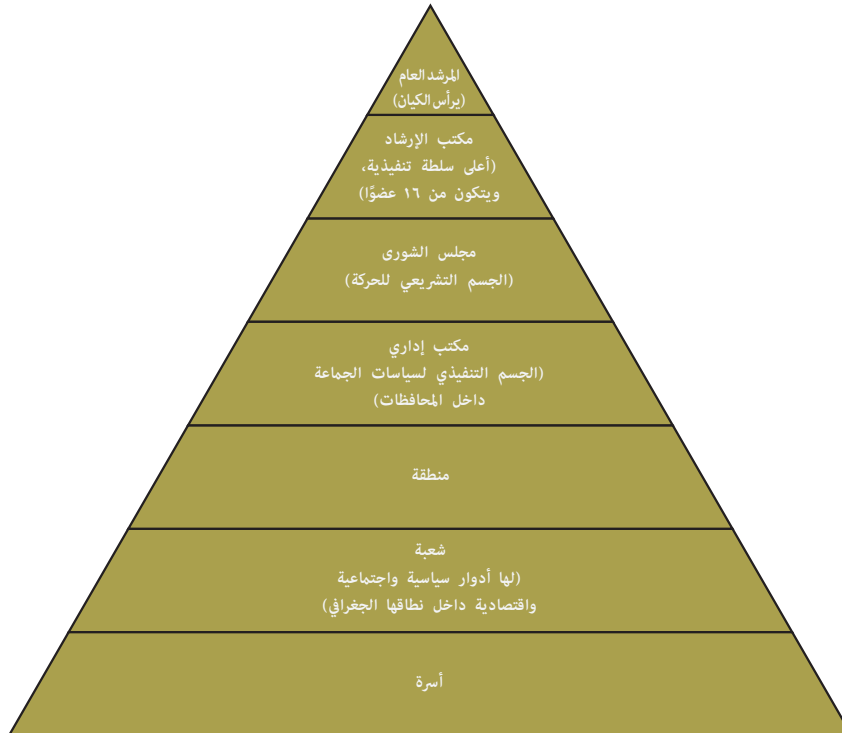
### الرسم التوضيحي (1)

#### نموذج الجماعة



### الرسم التوضيحي (2)

#### الهيكل التنظيمي لجماعة الإخوان



أشار العناني في هذا الفصل إلى بنية الهيكل التنظيمي المعقدة للجماعة، كما يبدو في الرسم التوضيحي (2). واعتبر أنّ التفاعل بين مستويات الهيكل السعة يقوم على تسهيل العمل والتواصل لإنجاز غايات الحركة. ولكنه يطرح عدداً من الانتقادات التي ترتبط بهذا الهيكل، خصوصاً فيما يتعلق بالمركزية الشديدة، وتغول سلطة مكتب الإرشاد (الجهة التنفيذية) على سلطة مجلس الشورى (الجهة التشريعية)، خصوصاً في اتخاذ القرارات الحاسمة، كالانتخابات أو التفاوض مع النظام. واعتبار مركزية اتخاذ القرار داخل الحركة لا يجعلها مركزية التنفيذ؛ إذ يرى أنّ الجماعة استفادت من ذلك في مواجهة القمع، وكذلك ضمان الصمود أمام آلات القمع التي تتعرض لها؛ بحيث تستمرّ قواعد الجماعة ومكاتبها الإدارية في ممارسة نشاطاتها على الرغم من غياب قياداتها، واستدّل في ذلك بما حدث للجماعة بعد عزل مرسي في 3 تموز/ يوليو 2013؛ فعلى الرغم من تعرّض قياداتها للسجن والنفي، استطاعت المستويات الدنيا تنظيم نفسها، وخلق حالة احتجاجية في القرى والمدن والجامعات، استمرت فترة طويلة. وينتقد الكاتب عدم التوازن بين السلطة والمسألة؛ فعلى الرغم من تحديد صلاحيات المرشد العام، فإنه لا يُمكن على مستوى الممارسة محاسبته لما له من قوة روحية ورمزية داخل الجماعة. وأخيراً يستنكر العناني الهيمنة الذكورية، وغياب تمثيل المرأة في المستويات القيادية للحركة مثل مجلس الشورى، ومكتب الإرشاد.

#### 4. بناء الأيديولوجية الإخوانية

تُعدّ "الأيديولوجية الإخوانية" Ikhwanism، كما سمّاها الكاتب في الفصل الثامن، بمنزلة الرمز الشفري للبنى التنظيمية، والتفاعلات الداخلية التي تتمّ داخل الحركة لإنتاج الفرد الإخواني، بل ذهب إلى اعتبارها طريقة حياة أكثر منها أيديولوجية. وفي هذا الصدد، أفرد البنا المبادئ الخمسة التي تقوم عليها في رسالة التعليم:

- البيعة، وهي مفهوم رمزي يتعلق بالحكم، وله جذور إسلامية تعود إلى عصر صدر الإسلام.
- الطاعة، تسبّب هذا المفهوم في عديد المشاكل داخل الحركة، خصوصاً لدى صفوف الشباب الراضف فكرة الطاعة العمياء التي توظّفها قيادات الجماعة لرفع غطاء الشرعية عن الحركات المعارضة لها داخل الحركة، إضافة إلى اتخاذ مبدأ "الطاعة" لقياس الولاءات، واعتباره أساساً للترقي داخل الحركة.
- الثقة، وهي تقوم على مبدأ الطاعة، والثقة في الجماعة وأيديولوجيتها.
- الالتزام، باعتباره أساس العلاقة التي تحكم الأفراد بأهداف الحركة وفق طرح ميلوشي.

#### 2. التربية وترسيخ الهوية الإخوانية

يهدف العناني من الفصل السادس من كتابه إلى استكشاف عملية التنشئة داخل جماعة الإخوان المسلمين والتكتيكات المختلفة التي تتبعها في تشكيل الهوية الإخوانية للفرد وترسيخها. وسم العناني ما يحدث داخل هذه المرحلة بـ "نموذج الحضانات" Incubation Model. ويقوم نموذج الحضانة على الدمج بين عمليتي الاستقطاب، والتنشئة والتلقين. وتنفرد الجماعة عن بقية الحركات بعملية التربية، وتهدف من خلالها إلى إعادة بناء المعتقدات الفردية للفرد بما يضمن تشكيل تصوّره لذاته، وكذا رؤيته للعالم من حوله.

اعتبر البنا أنّ التربية عملية ممتدة وتدرجية، وتعدّ بمنزلة الجبل الذي يربط الإخوان ببعضهم. ويُعرّف محاضن التربية بالمكان الذي يجتمع فيه الأعضاء دورياً بغرض الاتصال وتقوية علاقاتهم ببعض، فضلاً عن إسهام هذه النقاشات والتجمّعات في استيعاب الهوية الإخوانية وترسيخها. وتنقسم محاضن التربية، وفق طرح العناني، إلى سبعة مستويات؛ هي: الأسرة باعتبارها الوحدة الأساسية لبناء التنظيم وهدفها التعارف والتضامن فيما بين الأعضاء، والكتيبة بما لها من أهمية في التهيئة الدينية والتنظيمية لتعزيز قيم الولاء والطاعة والالتزام لدى العضو، والرحلة، والمعسكر لتعزيز قيم التضحية وتنمية القدرات العقلية والبدنية للأعضاء، وإقامة الدورات والندوات والمؤتمرات لتنمية المهارات الفكرية والقيادية، وتعميق المعرفة والنقاش حول القضايا المختلفة. وأشار العناني إلى العضوية داخل الجماعة، وتتكون من خمسة مستويات، هي: محب، ومؤيد، ومنتسب، ومنتظم، وعامل. وكما أشرنا سلفاً أنّ أهم الانتقادات التي تعرّض لها الجماعة انغلاقها على نفسها، لا سيّما في نظام عضويتها، ويُعزى ذلك إلى أسباب تتعلق بالقمع الذي تعرّض له منذ تأسيسها. لكن، يمكننا ملاحظة استمرار الجماعة في إغلاق نظام عضويتها، على الرغم من حالة الانفتاح السياسي بعد 25 كانون الثاني/ يناير 2011.

#### 3. الإخوان: الهيكل والتنظيم والأيديولوجية

يحاول العناني من خلال الفصل السابع فهم أسباب صمود الهيكل التنظيمي للجماعة، على الرغم من عمل الأنظمة السياسية المختلفة على تفكيكه على مدار أكثر من ثمانين سنة. ويتجاوز الفصل الأدبيات التي تناولت الديناميات التنظيمية للجماعة إلى محاولة سدّ الفجوة المتعلقة بتأثير الأيديولوجية في هيكل الجماعة، وكذلك انعكاس القمع السياسي على البناء التنظيمي، ويقوم هذا الطرح على رؤية ميلوشي للحركة الاجتماعية، باعتبارها فاعلاً مرتبطاً ومتأثراً بالصراع، وما ينتج منه من توزيع مراكز القوى داخل المجتمع.

بحيث استطاعت الجماعة استغلال الظروف السياسية المختلفة كعودتها في عهد السادات لمواجهة الفكر الناصري والاشتراكي، أو حتى انشغال النظام في حقبة التسعينيات بمواجهة الحركات الإسلامية العنيفة، ومن ثمّ اتبعت اتجاه المواءمة السياسية لتحقيق مكاسب انعكست على توسيع شبكة نشاطها الاجتماعي، فضلاً عن تمكّنها من السيطرة على الاتحادات الطلابية والنقابات المهنية، وصولاً إلى تهديد نظام الرئيس مبارك بعد حصولها على 20 في المئة من مقاعد البرلمان في انتخابات سنة 2005 على الرغم من حالة القمع الأمني والتزوير.

وعلى الرغم من تناول العناني ظاهرة الانقسامات داخل الحركة في إطار التباين بين الإصلاحيين والمحافظين، فهو لم يتوسّع في دراسة أسباب الانشقاق وحجمه، لا سيّما أنّه كان من الممكن الاستفادة من المقابلات التي أُجريت مع أعضاء سابقين في الجماعة. إضافة إلى ذلك، لم يُبرز العناني التوجهات السياسية والأيدولوجية لهؤلاء الأعضاء، وإن ظلوا يحملون هوية الجماعة أم تخلّوا عنها تماماً.

## خاتمة

أجرى العناني في خاتمة كتابه إطلالة بانورامية على تطوّر الأحداث السياسية بعد تنحي الرئيس الأسبق مبارك، خصوصاً أنّ الكتاب لم يكن يركّز على هذه الفترة الزمنية وما شهدته من أحداث، ولكن كان من الضروري الإشارة إليها والاستدلال بأحداثها أحياناً لما شهدته من وصول جماعة الإخوان إلى الحكم أول مرّة بعد حصولها على الأغلبية النيابية، وتميرها دستور سنة 2012، والوصول إلى منصب رئاسة الجمهورية، وكذلك نظراً إلى ما تعرّضت له من حالة قمع شديد بعد عزل الرئيس مرسي في 3 تموز/ يوليو 2013. وأشار العناني إلى بروز التيار السلفي وتغيّر خريطة الفاعلين الإسلاميين في السياسة المصرية، مُعتبراً ذلك من أكبر التحديات التي واجهت الحركة بعد الثورة.

• الانتماء والولاء، ويقوم على الإيمان بالمشروع الإسلامي، والانتماء إلى الفكرة الإسلامية وفق رؤية جماعة الإخوان.

## 5. التماسك القسري: الاستمرارية والبقاء

ركّز العناني في الفصل الأخير من الكتاب على تأثيرات البيئتين الداخلية والخارجية في التماسك التنظيمي للحركة. واعتبر أنّ البيئة الداخلية للحركة، وما تتضمنه من عمليات وتفاعلات أشرنا إليها سابقاً كالاستقطاب، والتربية، والتنظيم، والهوية، وغيرها، انعكست إيجابياً على تماسكها على مدى أكثر من ثمانين عاماً على الرغم من ظروف الإقصاء والقمع السياسي التي تتعرّض لها على مستوى البيئة الخارجية. من ناحية أخرى، يعتبر الكاتب أنّه تمّ توظيف محاولات القمع والإقصاء التي اتبعتها الأنظمة السياسية المختلفة تجاه الحركة لتأكيد ما أطلق عليه "سردية المحنة" لكسب تعاطف الناس، ودعم وحدة الحركة وتماسكها داخلياً لمواجهة هذا القمع.

”

ركّز العناني على تأثيرات البيئتين الداخلية والخارجية في التماسك التنظيمي للحركة. واعتبر أنّ البيئة الداخلية للحركة انعكست إيجابياً على تماسكها على مدى أكثر من ثمانين عاماً على الرغم من ظروف الإقصاء والقمع السياسي التي تتعرّض لها على مستوى البيئة الخارجية

“

يرى العناني أنّ علاقة الجماعة بالأنظمة السياسية لم تكن سيئة دائماً، ولكنها كانت تميل نحو ما سمّاه ناثان براون "لعبة القط والفأر"؛



## صدر حديثاً

تأليف: أسماء حسين ملكاوي.

### أخلاقيات التواصل في العصر الرقمي – هبرماس أنموذجًا

في كتابها أخلاقيات التواصل في العصر الرقمي – هبرماس أنموذجًا، الصادر حديثاً عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، تجيب الباحثة الأردنية أسماء حسين ملكاوي عن السؤال الآتي: هل نظرية أخلاقيات النقاش التي قدمها هبرماس، باعتبارها آلية للاتفاق وحل الخلافات وآلية للوصول إلى معايير خلقية، قابلة للتعميم من خلال النقاش العقلاني، خصوصاً بطرائق التواصل التقليدية المباشرة؟ أم هل هي ممكنة التطبيق من خلال تقانة التواصل الرقمي الجديدة؟

خليل فضل عثمان | Khalil Fadl Osman\*

"الانهيار: الآمال العريضة والفرص الضائعة في العراق"

"The Unravelling: High Hopes and Missed Opportunities in Iraq"

عنوان الكتاب في لغته: The Unravelling: High Hopes and Missed Opportunities in Iraq.

عنوان الكتاب: الانهيار: الآمال العريضة والفرص الضائعة في العراق.

المؤلف: إيما سكاى Emma Sky.

سنة النشر: 2015.

الناشر: Atlantic Books, London.

عدد الصفحات: 400 صفحة.



\* باحث لبناني متخصص في العلاقات الدولية والسياسة المقارنة وشؤون الشرق الأوسط، ومستشار أقدم في الأمم المتحدة.

Lebanese Researcher who Specializes in International Relations, Comparative Politics and Middle East Studies, Senior Advisor to the United Nations

الثقافي البريطاني في مدينة مانشستر. وافقت مؤسستها الأم على إعارتها إلى وزارة الخارجية للإسهام في إدارة شؤون العراق. وهكذا، تُشدُّ سكاى رحالها إلى العراق على متن طائرة تابعة للقوات الجوية الملكية البريطانية، أُلغيت في 20 حزيران/ يونيو 2003، من قاعدة برايز نورتون الجوية إلى الغرب من لندن متجهة نحو مطار البصرة الدولي. كانت هذه الطريق هي نفسها التي سلكتها، والتي سيسلكها بعدها آلاف من الجنود البريطانيين والمتعاقدين والصحافيين الذين انتدبتهم مؤسساتهم الإعلامية لمرافقة القوات البريطانية العاملة في العراق، ومن بينهم كاتب هذه السطور الذي انتدبته الـ "بي بي سي" BBC لمرافقة القوات البريطانية في جنوب العراق، لتغطية انتخابات الجمعية الوطنية العراقية في كانون الثاني/ يناير 2005.

”

ثمة في ما تقصّه سكاى ما يكشف عن كثير من الفوضى والمصاعب التي شابّت عمل سلطة الائتلاف المؤقتة وقوات التحالف في العراق

”

ثمة في ما تقصّه سكاى عمّا مرّت به من أحداث، عند وصولها إلى العراق وتوليها مهمات عملها، ما يكشف عن كثير من الفوضى والمصاعب التي شابّت عمل سلطة الائتلاف المؤقتة وقوات التحالف في العراق. تصل سكاى إلى مطار البصرة فلا تعثر على أي أثر لأجهزة الدولة العراقية، حيث "لا ختم يُهرّ على الجواز، ولا تأشيرة دخول، ولا عراقيين" (ص 8). كانت المنافذ الحدودية للبلاد سائبة آنذاك، وكان الأجانب يدخلون العراق من دون حسيب أو رقيب. أتذكّر أول مرة دخلتُ فيها العراق براً عن طريق الكويت عام 2003 لتولي إدارة مكتب القسم العربي في الـ "بي بي سي" في بغداد. فقافلنا صمّت يومها سيارتين حملتا صحافيين من المحطة إلى بغداد، وعبرت منفذ صفوان الحدودي، من دون أن نرى أي أثر لسلطة تُحصي الداخلين والخارجين وتتأكد من أوراقهم الثبوتية. لم نَرَ يوماً عند معبر صفوان سوى بقايا المركز الحدودي الذي طحنته آلة الحرب الأميركية، وأحالته قاعاً صفصفاً. وقد ندم المسؤولون الأميركيون لاحقاً على تتركهم حدود البلاد سائبة عدة أشهر؛ ما أتاح لآلاف الجهاديين عبور الحدود والاتحاق بالجماعات المسلحة التي كانت قد بدأت تتشكل وتنظم صفوفها، ولكن "لات ساعة مندم".

قلّما يقرأ المرء كتاباً يضم بين دفتيه ذكريات حرب، أو مسيرة إعادة البناء، في حقبة ما بعد تلك الحرب بقلم أحد صنّاع أحداثها، من دون أن تطالعه رؤية من الداخل لكيفية تشكّل تلك الأحداث. ينشئ كُتاب هذه الذكريات في "صناديق الذاكرة" ويسترجعون الأحداث. يسردون تسلسلها ويؤكدون لنا جازمين نُبل دوافعهم. يخبروننا عن آمالهم العريضة وحيياتهم المريرة، وعن التحديات التي اعترضت سبيلهم، ويستشهدون بالوقائع والوثائق والأرقام، لكن ما يكتبونه من ذكريات غالباً ما يظل عابقاً بروائح التبرير والتنصل وتبرئة الذات، وتجاهل مسؤوليتهم عمّا تساقط من تلك الأحداث التي ساهموا في صنعها من فصول الأمل والفجيعة والانكسارات والرعب والدمار. والكتاب الذي بين أيدينا لا يشذ عن هذه القاعدة.

في كتابها الانهيار: الآمال العريضة والفرص الضائعة في العراق تنبش الكاتبة البريطانية إيمّا سكاى في خزائن ذاكرتها؛ لتسترجع فصول تجربتها التي امتدت أكثر من سبع سنوات في حقبة ما بعد الحرب في العراق، بدءاً من توليها مسؤولية الإشراف على فرع سلطة الائتلاف المؤقتة في محافظة كركوك، في الأشهر الأولى التي أعقبت الغزو الذي قادته الولايات المتحدة على العراق وإطاحة حكم الرئيس العراقي الأسبق صدام حسين، وانتهاء بعملها مستشارة سياسية لقائد القوات الأميركية في العراق الجنرال راي أودينرو، تعقبها بسرد سريع لثنت من زيارات قامت بها إلى العراق بعد انسحاب القوات الأميركية من البلاد في كانون الأول/ ديسمبر 2011. ويأتي كتاب سكاى، الذي يغطي حقبة زاخرة بالأحداث العاصفة، غنيّاً من حيث الأحداث التي يستعرضها، وفي طليعتها بعض ما تكشف وراء كواليس تلك الأحداث، في الغرف المغلقة لصناعة القرار السياسي التي عجّت بأعضاء الطبقة السياسية العراقية والمسؤولين الأميركيين العاملين في العراق. وفي مراجعة كتاب زاخر بالأحداث على هذا النحو، لا يجد المرء مفرّاً من الاتكاء على الانتقاء الهادف عبر التركيز على أبرز فصول أحداث الحكاية التي تُروى في الكتاب.

## من هنا كانت البداية

تبدأ حكاية سكاى مع العراق عندما استجابت لإعلان صادر عن الحكومة البريطانية يدعو إلى التطوع للعمل على إعادة بناء العراق بعد سقوط النظام عام 2003. كانت سكاى، اليهودية التي سبق لها أن تطوعت للعمل في كيبوتز كفار ميناخيم في إسرائيل وفي منظمة فلسطينية غير حكومية في الضفة الغربية، تعمل موظفة في المجلس

## في سلطة التحالف في كركوك

في مطار البصرة الذي يعج بالجنود البريطانيين، لم تجد سكاكي أحدًا في انتظارها ليدلها على الخطوة التالية، أو ليرشدها إلى مكان عملها؛ فقررت أن تذهب إلى بغداد حيث أقامت بضعة أيام في القصر الجمهوري، لتلت خلالها سلسلة إجازات حول الوضع في العراق قبل أن تذهب إلى أربيل، حيث أُبلغت أنها قد كُلفت بالعمل في كركوك، لتعمل وحدها من دون إشراف أو توجيه من المقر الرئيس لسلطة التحالف المؤقتة في بغداد أو في لندن. تقول في هذا الصدد: "كان لدي قدر قليل من الاتصال بسلطة التحالف المؤقتة في بغداد، ولم يكن لدي أي اتصال بلندن. تُركت لتدبير أموري بنفسي لتبين كيفية القيام بمهمات عملي غير المحدد" (ص 46). ولئن كان هذا التخبط سمة طبعت عمل سلطة الائتلاف المؤقتة في الأشهر والأسابيع الأولى التي تلت الحرب، تلك السلطة التي شكّلت لتنظيم أمور البلاد والعباد في عراق ما بعد الحرب، فإنه كان أيضًا إيذانًا بما سيحل بالبلاد من تخبط وفوضى في إدارة شؤون الدولة التي استولدتها.

وفي كركوك، تولت سكاكي رئاسة فرع سلطة الائتلاف المؤقتة، حيث عملت على نحو وثيق مع الكولونيل وليام مايفيل، قائد اللواء 173 المجوقل، الذي كان حينئذ يتولى السيطرة على المحافظة، متخذًا قاعدة الحرية الجوية مقررًا له. يستبد بالمرء، وهو يقرأ ما سطرته سكاكي عن "إنجازاتها" في كركوك، شعور بأن كركوك هي عنوان فشل سلطة الائتلاف المؤقتة وقوات التحالف الذي قاده الولايات المتحدة في إقامة نظام سياسي مستقر في العراق والتأسيس للتعایش والوثام بين مكوناته. يطل هذا الفشل الذريع برأسه من خلال حوار دار بين سكاكي والكولونيل مايفيل في أيامها الأولى في المحافظة. تخاطبه سكاكي بالقول: "كركوك على قدر بالغ من الأهمية بالنسبة إلى العراق؛ لأنها صورة مصغرة عن المجتمع العراقي. وإذا ما تمكنا من وضع الأمور في نصابها الصحيح هنا، فسيكون هناك أمل بالنسبة إلى العراق الجديد" (ص 24). وستبدي الأيام صدق نبوءة سكاكي. ففي حين نرى أزمة كركوك - حيث "لا جماعة تقم بمظلوميات الآخرين" (ص 32) - تزداد تعقيدًا بمرور الأيام، لا تزال الأزمات والمآزق تترى على العراق الذي بات أهله يتندرون بالقول إنه "لا يمر يوم ويأتي أحسن منه".

بيد أن رواية سكاكي عن الأحداث الساخنة التي شهدتها كركوك، إبان الغزو الذي قاده الولايات المتحدة والأشهر الأولى التي أعقبته، تظل رواية مبتسرة مُفتقرة إلى كثير من التفاصيل المهمة، فضلًا عن أنها تعاني الارتباك أحيانًا. والانطباع الذي يخرج به المرء أنها تنقل

بـ "أمانة" ما سمعته خلال إجازات سريعة تلتقتها من ضباط أميركيين، أو حوارات أجرتها معهم ومع مسؤولين وزعماء في المحافظة، من دون تحقيق أو تمحيص أو بحث لإعطاء صورة دقيقة ومتكاملة عن تلك الأحداث. على سبيل المثال، تخبرنا الكاتبة نقلًا عن الكولونيل مايفيل أن "اللواء 173 المجوقل، مع قوات البيشمركة الكردية، كان قد انتزع في 10 نيسان/ أبريل 2003، كركوك من قبضة جيش عراقي منهار معنويًا وفي طور الفرار" (ص 28). ولكن ما لا نَقَع له على أثر في رواية سكاكي أن قوات البيشمركة التي دخلت كركوك يومها كانت تابعة للاتحاد الوطني الكردستاني، ولم يكن الحزب الديمقراطي الكردستاني راضيًا عن ذلك بسبب التنافس التاريخي بين الحزبين. وتخبرنا سكاكي، أيضًا، أن مدينة كركوك شهدت موجة من النهب والسلب على مدار أسبوع بعد ذلك، وأن الأمن والهدوء لم يُستعَادَا إليها إلا بعد انتشار وحدات من اللواء 173 المجوقل. وتضيف أنه سرعان ما بدأ تقديم الخدمات في المدينة، بما في ذلك التعليم والرعاية الصحية (ص 28).

ويظهر لنا بوضوح، من خلال رواية سكاكي، أن صورة الوضع في كثير من مناطق المحافظة خارج المدينة، وخصوصًا تلك التي تقطنها أغلبية سكانية عربية، كانت مغايرة لما كان عليه الوضع في مدينة كركوك. وإذا ما أخذنا قطاع التعليم مثلًا، فإننا نجد أن كثيرًا من المدارس في المناطق العربية من كركوك توقفت عمليًا عن العمل؛ بسبب فصل معظم مُدرسيها من وظائفهم في سياق تطبيق سياسة "اجتثاث البعث". ففي قضاء الحويجة، فقد زهاء 540 مُدرّسًا ووظائفهم. وتروي سكاكي قصة اجتماع في أيلول/ سبتمبر 2003 مع الشيخ وصفي العاصي، أحد شيوخ قبيلة العبيد في كركوك وعضو مجلس محافظة كركوك آنذاك، ناشدها خلالها أن يجري العمل على إعادة هؤلاء إلى أعمالهم، ولكن كل التقارير التي أرسلتها في هذا الصدد إلى المقر الرئيس لسلطة التحالف ذهبت أدراج الرياح. وتضيف أن هذا الملف لم يُحلّ إلا بعد إحالة الأمر إلى الجتزال أوديرنو الذي كان حينذاك قائد فرقة المشاة الرابعة في الجيش الأميركي (مقرها تكريت)، والذي كانت قوات التحالف في كركوك تحت إمرته. يومها اتخذ أوديرنو قرارًا بالسماح بإعادة المُدرسين المفصولين إلى مناصبهم ودفع رواتبهم من ميزانية فرقته (ص 56-58). والمعروف أن ملف المُدرسين المفصولين كان يقصّ مضاجع عرب كركوك، وأنه قد تبناه معظم زعماء العرب في المحافظة، ومن بينهم رئيس مجلس قضاء الحويجة الراحل حسين علي صالح (أبو صدام)، الذي توسّط في هذا الأمر مرارًا لدى الضابط الأميركي المسؤول عن الحويجة. والظاهر أن قرار إعادتهم جاء في